ترجمات | قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة | 22 مارس 2017

جيِّدة هذه الفلسفة العتيقة

ريتشارد رورتي
ترجمة: محمد جديدي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

جيِّدة هذه الفلسفة العتيقة[1]

ريتشارد رورتي

ترجمة: **محمد جديدي**

[1] **مصدر المقال**: نشر المقال في 4 أفريل سنة 1988م، بمجلة الجمهوريَّة الجديدة Republic New في الصفحات من 28 إلى 33.

1988c. "That Old-Time Philosophy." [a review-article on Allan Bloom's **The Closing of the American Mind**.] The New Republic (Apr 4, 1988), 28-33.

ملخَّص المقال:

المقال عبارة عن قراءة ومراجعة فلسفيَّة review book لكتاب آلان بلوم Allan Bloom إغلاق العقل أو الذهن الأمريكي **The Closing of the American Mind**. لمَّا نُشر الكتاب سنة 1987 ظلَّ لفترة من الزمن من الكتب الأكثر رواجاً نتيجة جرأة طرحه لقضايا تشغل الرأي العام والشأن الثقافي الأمريكي. يتابع رورتي في هذا المقال طروحات بلوم ومواقفه ويحاول الدفاع عن آرائه وآراء أستاذه جون ديوي المتميزة بكونها تاريخانيَّة ونسبويَّة، مقابل طرح بلوم الذي يستند إلى أستاذه ليو ستراوس في الدفاع عن مبادئ ثابتة ينبغي أن تحكم الطبيعة البشريَّة والسلوك الإنساني. وهنا نلمح أسلوباً ساخراً ما بعد حداثي، لأنَّ رورتي من خلال العنوان لا يمجّد الفلسفة العتيقة الباحثة عن الجوهر الثابت في الخير والحقيقة والإنسان.

لذا كان بلوم قاسياً في نقده لوضع التعليم العالي في أمريكا، وهو الذي أراد تبنّي إصلاح للجامعات يقوم على منهج الكتب الكبرى، أي ذات النصوص الكلاسيكيَّة التي تكرّس منظور القيم والمبادئ الدائمة، بينما ينظر رورتي ومن ورائه التاريخانيون إلى الديمقراطيَّة بعيداً عن تنظير فلسفي أبدي، بقدر ما هي تجربة في التاريخ تتنقح في كلّ مرَّة، ولها من المزايا والمساوئ ما يجعلها تصلح ذاتها بوعي مواطنيها وإرادتهم في التعجيل بإصلاح شؤون حياتهم في كلّ مناحيها من منطلق التربية، وذلك ما قام به ديوي.

تمييز هذه التجربة التاريخيَّة عن التأسيس النظري هو وحده ما يفصل بين نموذجين من المثقفين؛ فئة متفلسفة باحثة عن اليقين الثابت، كما فعل أفلاطون وبلوم وهؤلاء هم الفلاسفة **philosophers**، وفئة مفكّرة باحثة عن الحقيقة في التغير والزمان، وهؤلاء هم المثقفون **Intellectuals** كما فكَّر ديوي ورورتي.

نَصُّ المقال

في نهاية مؤلفه إغلاق العقل الأمريكي The closing of American mind، كتب ألان بلوم[1] Allan Bloom: «إنَّ الجماعة البشريَّة الحقيقيَّة، من بين كلّ الصور الوهميَّة المتناقضة للجماعة، هي جماعة من يبحثون عن الحقيقة، أي هم العلماء المحتملون [Knowers] بمعنى، مبدئياً، جميع البشر بحسب درجة رغبتهم في المعرفة. بيد أنَّ جماعة كهذه تنحصر في بضعة أشخاص، أصدقاء حقيقيين، كما كان أفلاطون بالنسبة إلى أرسطو حتى في اللحظة ذاتها التي كانا فيها مختلفين حول طبيعة الخير ...، هذه فقط، حسب أفلاطون، الصداقة الحقيقيَّة الوحيدة، الخير المشترك الوحيد حقيقة...، أمَّا الأنواع الأخرى من العلاقات فليست سوى انعكاسات ناقصة لهذه الأخيرة، تزعم الاكتفاء بذاتها، لكن لا تبرير لها إلا قياساً بهذه العلاقة النهائيَّة.»

إنَّ هذا الاعتراف هو إقرار صريح على نحو باهر بالشكوك المتصلة بالديمقراطيَّة، وهي شكوك مشتركة بين كثير من المثقفين. وعموماً بوعي سيّئ، يتساءل هؤلاء إذا ما كانت ترغب جموع غير المثقفين دائماً في الأشياء التي نرغبها نحن ـ المثقفين ـ، وإذا كانت جماعة الديمقراطيَّة يمكنها أن تبنى على سقط المتاع والخردة التي على ما يبدو يحبها أصحابها، وإذا كان ولاؤنا لفكرة الديمقراطيَّة يمكن أن يكون أكثر من استراتيجيَّة حذرة وكلبيَّة: فإنَّكم تقدّمون لجامعتنا أبناءكم الموهوبين. هنا وحيث نبعدهم عنكم ونحتفظ بالأفاضل؛ بالمقابل فإنَّنا نعيد إليكم الخيار الثاني حتى نزودكم بالتكنولوجيات، والترفيه، وهذر الرئاسيات.

ومن أفضال المدرسة الستراوسيَّة [نسبة إلى ليو ستراوس] النظريَّة السياسيَّة التي ينتسب إليها بلوم Bloom، والتي سمحت بتغذية هذه الشكوك بوعي جيد. فالستراوسيون [أتباع ستراوس] يذهبون إلى ذلك بشكل صريح: فـولاء الـعلماء المحتملين للديمقراطيَّة ليس سوى استراتيجيَّة حذرة. وحسبهم أنَّه لا أحد يمكنه أن يرضى بالخضوع للبدع الجمعويَّة ـ وأن يكونوا مصادفة حمقى بما فيه الكفاية كي يصوّتوا لصالح هتلر Hitler ـ إذا كنا فقط نملك الخيار، لكنَّنا لا نملك الخيار، وينبغي علينا أن نظفر بأفضل نتيجة من القضيَّة

---

1 ننبّه إلى أنَّ الهوامش من وضع المترجم، بغية توضيح أكثر لبعض المصطلحات أو العناوين أو تعريف بالشخصيات الواردة في المقال وهي ـ في اعتقادنا ـ تستوجب تعريفاً أو شرحاً حتى يتضح سياق النص ومغزاه.

ألان بلوم Allan Bloom (1930- 1992) فيلسوف أمريكي، تلميذ ليو ستراوس في شيكاغو، عُرف بكتابه الهام والشهير The Closing of the American Mind المنشور سنة 1987.

السيئة. يرفض الستراوسيون محاولات إمرسون[2] Emerson أو ديوي[3] Dewey في إيجاد هويَّة أخلاقيَّة للمشاركة ضمن جماعة ديمقراطيَّة. إنَّهم يعتبرون أنَّ محاولة كهذه، التي تفترض أنَّ مجتمعاً ديمقراطياً تعددياً يمكن أن يكون أكثر من صورة وهميَّة[4]* غير منسجمة (سيميلاكر غير متماسك) لجماعة، هي أيضاً طفوليَّة كالحلم الماركسي في بروليتاريا متحرّرة تقرأ الفلاسفة ضمن فواصل عملها المستلب.

فلاسفة ومثقفون

لا يعبّر، ليو ستراوس[5] Leo Strauss الفيلسوف السياسي المهاجر الكبير وأستاذ بلوم، عن هذه الشكوك إلا بتحفظ وكتمان، لكنَّ تلامذته صاروا أكثر وضوحاً. يطرح بلوم بشكل جلي تاريخاً وضع كي يسمع في آذان المُلقنين. هذا التاريخ يدور حول «فلاسفة» (اسم ستراوسي بالنسبة إلى أولئك الذين يحبون الحقيقة ولا ينبغي خلطهم مع من هم فقط أذكياء [clever] «المثقفون»). هؤلاء الفلاسفة كانوا على الدوام، وبالضرورة، كاذبين. وحسب صيغة بلوم Bloom فقد لجؤوا إلى فن ناعم في الكذب. يتحدث ستراوس Strauss، وبكثير من العناية، عن ضرورة عدم الدقة في الشؤون الأخلاقيَّة والسياسيَّة. إنَّهم يكذبون لأنَّهم لا يحكمون، ومن المحتمل ألا يحكموا أبداً. يشكلون جماعة مصلحة حيث لا تكون المصالح معقولة بالنسبة إلى من هم أعضاء، ويتوجب عليهم مخادعة ومخاتلة من بيدهم السلطة، مهما يكن. كتب بلوم Bloom: «فقبل تطور المجتمعات الديمقراطيَّة، كان الفلاسفة يتحالفون مع السادة، صاروا عوناً لهؤلاء، ولكن من دون أن يكشفوا عن ذلك تماماً، ويعززون من نبلهم وانفتاحهم الذهني عن طريق إصلاح تربيتهم.»

---

2 إمرسون رالف والدو Emerson Ralph Waldo (1803- 1882) فيلسوف، كاتب صاحب محاولات نثريَّة وشعريَّة، ومتزعم الحركة الترنسندتاليَّة الأمريكيَّة في القرن التاسع عشر مع مجموعة من المثقفين الأمريكيين منهم الشاعر: دافيد هنري ثورو David H. Thoreau من نصوصه:

Nature, (1836) - The American Scholar (1837) - The Divinity School Address, (1838) Essays: First Series, (1841) - The Transcendentalist, (1841) - Essays: Second Series, (1844) - Thoreau, (1862).

3 جون ديوي John Dewey (1859 - 1952) فيلسوف ومُنظّر تربوي أمريكي، ومن رواد البراغماتيَّة الكلاسيكيَّة، اهتمَّ بالتربية اهتماماً شديداً نافس فيه اهتمامه بالفلسفة، وربط الاثنين بجوانب عدَّة من الحياة الديمقراطيَّة الأمريكيَّة كالسياسة والفن والأخلاق والثقافة عموماً. أثَّر في الحياة الفكريَّة الأمريكيَّة، لا سيَّما في بداية القرن العشرين، ومن أتباعه ريتشارد رورتي. من أهمّ كتبه: المدرسة والمجتمع School and Society(1899) - الديمقراطيَّة والتربية (Democracy and Education(1916 - الفن خبرة Art as Experience (1934) الخبرة والتربية Experience and Education (1938) - المنطق نظريَّة البحث Logic: The Theory of Inquiry(1938)- الحريَّة والثقافة Freedom and culture (1939).

4* توضع للفظة سيميلاكر simulacre في الترجمات العربيَّة عدة ألفاظ؛ منها صورة وهميَّة أو زائفة أو ظل أو نسخة أو شكل محاكٍ، وهناك من يفضل على سبيل المثال الإبقاء على لفظ سيميلاكر دون وضع مقابل عربي له لأنَّ المقابل قد لا يفي بالغرض، فلا يدلُّ عليه دلالة واضحة التي قد تفيد التمثيل المصور أو ما يكون من مظهر فقط لما يزعم في وجوده.

5 ليو ستراوس Leo Strauss (1899 - 1973) فيلسوف ألماني معاصر، انتقل إلى أمريكا سنة 1932 وبها استقر وتوفي. اهتمَّ بالخصوص بالفلسفة السياسيَّة، فدرس التصورات الكلاسيكيَّة والحديثة للحق الطبيعي، عارض ماكس فيبر في آرائه السوسيولوجيَّة، كما انتقد الرؤية العلميَّة للفلسفة لدى كانط وهيغل، وانشغل بدراسة تاريخ الفلسفة اليهوديَّة في العصر الوسيط. كان له تأثير بارز على بعض المثقفين الليبراليين الأمريكيين، ومنهم آلان بلوم. من أبرز مؤلفاته:

- Spinoza's Critique of Religion, 1930 - The Political Philosophy of Hobbes, 1936 - Natural Right and History (Droit naturel et histoire), 1953 - What Is Political Philosophy (Qu'est-ce que la philosophie politique ?) 1959 - The City and Man (La Cité et l'homme), 1963 - Liberalism Ancient and Modern (Le Libéralisme ancien et moderne), 1968 - History of Political Philosophy, 1963 - Studies of Platonic Political Philosophy, 1983.

لكنَّ الجماهير اقتربت من السلطة وبدأت بقطع الرؤوس: استمرَّ الفلاسفة في بحثهم عن وسيلة لتضليل الجماهير. وبحيلة «غيَّروا الحزب، وهجروا الأرستقراطيَّة من أجل الديمقراطيَّة»، على الرغم من أنَّهم لم يكن لهم «أي وهم حول الديمقراطيَّة»، وقد استبدلوا سوء فهم بآخر سابق، وتقديمهم الفلسفة للإنسان العادي ليس على أنَّها «كموجِّه أخلاقي بل باعتبارها معاوناً على تحقيق أحلامه العزيزة». وبعبارات أخرى، تأتي الجماهير إلى الاعتقاد بأنَّ هؤلاء الألفا[6]** Alphas اللطفاء جداً، الطيبين جداً والمحترفين في عملهم، سيمكنونهم من نيل الأشياء التي يرغبون فيها، إن لم يكن الخلود فعلى الأقل الحياة لأطول مدة ممكنة، وحياة تكون قد انقضت في أفضل عالم[7] brave new world مليء بملذات وضيعة ودائماً أكثر إثارة (إعدامات علنية، وأفلام رامبو، ووجبات مطبخ جديد، وجينز، ودوماً بخلفية مزعجة، وأشكال جنسية أكثر وضوحاً لما كان يحبذ ستراوس Strauss تسميته «بموسيقى الغاب»). وفي المقابل سمحت الجماهير للفلاسفة بالعيش في الجامعات الأكثر تجهيزاً ـ باعتقاد ساذج أنَّ هذه المؤسسات «ستخدم المجتمع» ـ «فقد كتب بلوم Bloom إنَّ الجامعات ازدهرت لأنَّها بدت في خدمة المجتمع بمثل ما أنَّها خدمت نفسها.»

إنَّ ما كان يمقته بلوم Bloom هو أنَّ غالبية أساتذة أُقسام العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيات بالجامعات هم «مثقفون» بدلاً من كونهم «فلاسفة». هؤلاء المثقفون ظنُّوا أنَّه بالإمكان التعامل بنزاهة مع الجمهور، إن لم يكن بخدمته كما يريد أن يخدم فعلى الأقل باعتبار بتسامح (سعة أفق) لما ينبغي أن يخدم. ولم يفهموا أنَّ الوظيفة الأساسيَّة للجامعات هي خدمة الفلاسفة (وضمان توظيفهم).

لم يكن غضب بلوم موجَّهاً ضدَّ الجمهور، وإنَّما ضد المثقفين، ضدَّ أولئك الذين يؤكدون، تبعاً لإمرسون Emerson وديوي Dewey، بأنَّ «تجربتنا الديمقراطيَّة» جعلتنا اليوم، نحن الأمريكيين، حكماء أكثر من الإغريق. إنَّه غضب موجَّه ضدَّ نوعيَّة محليَّة لهؤلاء الذين أسماهم ستراوس «التاريخانيين». يعتقد التاريخانيون أنَّ أفلاطون وأرسطو مُهملان، مثلما هي المعاني الإغريقيَّة عن الحقيقة الأبديَّة أو عن طبيعة الخير، وحتى لا نقول شيئاً آخر حول تقسيم المجتمع إلى فيلسوف، رجل نبيل وجمهور، أو تقسيم الإنسان إلى روح وجسد أو إلى عقل ورغبة. فمن بين الأنواع الأكثر تحققاً للتاريخانيين ـ الأطروحة المناقضة لستراوس ـ، يمكن أن نسمّي مل Mill، وديوي Dewey وراولس Rawls. وحول الأوَّلين، كتب بلوم Bloom:

6** الألفا Alphas هم الفئة الأولى من الطبقات العليا، إضافة إلى البيتا **Bêta**، ذلك أنَّ شخصيات رواية أفضل العوالم لألفرد هوكسلي (وهي رواية خيال واستباق علمي نشرت سنة 1932) ينقسمون إلى طبقتين واحدة عليا وأخرى دنيا، يمثلهم بالأحرف اليونانية، ونجد في الطبقة العليا فئة الألفا **A-pha** والبيتا **Bêta** وفي الدنيا الغاما **Gamma** والدلتا **Delta** والأبسيلون **Epsilon**. وإذا كان الألفا هم النخبة المسيرة، وهم مبرمجون لكي يكونوا أضخم وأجمل وأذكى لباسهم باللون الأخضر، فإنَّ البيتا يشكلون فئة عمال أذكياء، وهم مبرمجون كي يتولوا وظائف هامَّة، ولباسهم بلون برتقالي، بينما فئات الطبقة الدنيا أي الوسطى والشعبيَّة وظائفهم بسيطة، وهم أقلُّ جمالاً وذكاء، ولباسهم بلون أصفر.

7 أفضل عالم أو أفضل العوالم brave new world وهي رواية خيال واستباق علمي مشهورة للكاتب الإنجليزي ألدوس هكسليAldous Huxley نشرت سنة 1932. يصف صاحبها مجتمعاً خيالياً تحكمه التقنية والبيوتكنولوجيا والتجارب العلميَّة التي يسعى فيها العلماء والتقنيون إلى التحكم وضبط السلوك البشري. وهي من الروايات الرائدة في سرد هذا النوع من التجريب العلمي.

«فالليبراليَّة مفصولة عن الحقوق الطبيعيَّة، تلك التي نعرفها عبر جون استيوارت مل John Stuart Mill وجون ديوي John Dewey، علَّمتنا أنَّ الخطر الوحيد الذي يهدّدنا هو ألا نكون متقبلين لما يظهر، للجديد وللتقدُّم. عدم الانتباه للإبقاء أو للحفاظ على المبادئ الأساسيَّة أو الفضائل الأخلاقيَّة التي ترغم البشر على العيش حسب هذه المبادئ».

لكن ضدَّ راولس Rawls يبدو بلوم Bloom أكثر قسوة؛ فهو يقدّمه على أنَّه يكتب مئات الصفحات لإقناع الناس بعدم احتقار أيٍّ كان، ويقترح مخططاً حكومياً لإجبارهم على هذا الاقتناع. «ففي نظريَّة العدالة[8] Theory of Justice، كتب أنَّه يجب على الفيزيائي أو الشاعر ألَّا ينظر من أعلى لمن يقضي حياته في عد رزم النبات أو أيّ نشاط آخر تافه أو لا أخلاقي. وفي الحقيقة، ينبغي تقدير رجل كهذا، لأنَّ تقدير الآخرين، على عكس تقدير الذات، هو حاجة أساسيَّة لكُلِّ البشر. إنَّ غياب إدراك كهذا هو واجب أخلاقي، لأنَّ عكسه هو التمييز. تعني هذه اللامعقوليَّة أنَّه غير مسموح للبشر بالبحث عن الخير الإنساني الطبيعي والإعجاب بما يعثرون عليه، ذلك أنَّ اكتشافاً مثل هذا لا ينفصل عن اكتشاف لما هو سيّئ، مع كلّ الازدراء الذي يرتبط به».

ضمن فقرات كهذه، يخلط بلوم Bloom كتاب نظرية العدالة مع مثل الإنسان ذي البعد الواحد[9] One-Dimensional Man الذي يصفه، بشيء من العدل، مثل «**نقد ثقافي غير مرغوب فيه**»[10]*** Kulturkritik de pacotille وهو لا يرى فرقاً بين جهلة مجمع سنوات الستينيات، مع ثرثرتهم ضدَّ «النخبويَّة»، وكتَّاب مثل راولس Rawls وديوي Dewey الذين يتصورون مجتمعاً ضمنه، مهما يكن لنا فيه من تميز على حدة، نحن لا نسمح للمؤسسات باحتقار من نحكم على أذواقهم وسلوكاتهم بأنَّها حقيرة. يمحو بلوم الفرق بين القول مثلاً: «ألعاب الفيديو هي أيضاً جيّدة كالشِّعر»، والقول «في مصلحة الديمقراطيَّة التعدديَّة التي تتضمن في الوقت نفسه من يقرؤون الشعر ومن لا يفعلون ذلك أبداً، ينبغي علينا أن نجعل قوانيننا ومؤسساتنا كذلك لا مبالية قدر المستطاع بالفرق بين ألعاب الفيديو والشِّعر.» لا يحتمل بلوم فكرة أنَّ مجتمعاً كهذا يمكن أن يكون شيئاً آخر سوى سيميلاكر غير متماسك. إنَّ الفكرة المتضمنة أنَّ الفكر السياسي والمؤسسات الاجتماعيَّة يجب أن تكون مستقلة عن كلِّ تراتبيَّة لأنماط بشريَّة تبدو بالنسبة إلى الستراوسيين الخطأ الكبير في العصر الحديث.

---

8 نظريَّة العدالة Theory of Justice: كتاب في الفلسفة السياسيَّة والأخلاقيَّة نشر بداية سنة 1971 وقد عرفت الساحة الفلسفيَّة الأمريكية تحولاً كبيراً، كتبه الفيلسوف الأمريكي جون راولس John Rawls (1921- 2002)، وأعيد طبعه بعد ذلك عدَّة طبعات، وفيه ينتقد راولس العدالة التوزيعيَّة المبنية على أساس نظريَّة المنفعة، داعياً إلى تأسيس نظريَّة للعدالة بوصفها إنصافاً على أفكار كانط والعقد الاجتماعي، ومن خلال العودة إلى مبدأين هما الحريَّة والاختلاف.

9 الإنسان ذو البعد الواحد L'Homme Unidimensionnel كتاب الفيلسوف الألماني الأمريكي هربرت ماركيز Herbert Marcuse أحد فلاسفة مدرسة فرانكفورت (1898- 1979). حيث انتقد في هذا الكتاب الذي حمل عنواناً فرعياً إيديولوجياً المجتمع المتقدم أشكال القمع الاجتماعي التي أفرزتها الرأسماليَّة والماركسيَّة السوفياتيَّة.

10*** نقد ثقافي غير مرغوب فيه Kulturkritik de pacotille بمعنى نقد ثقافي رخيص القيمة أو عديم القيمة، وهو كالبضاعة أو السلعة الرديئة المرادف لـ rubbish بالإنجليزي أو camelote بالفرنسي.

الطائفة والحوار:

بالنظر إلى رأيه في النمط النوعي للصداقة التي كانت تربط أفلاطون بأرسطو على الرغم من خلافاتهما، نتوقع بأن يدرج بلوم، في هذا الجزء أو ذاك من كتابه، حواراً مع المنظّرين مثل جون راولسJohn Rawls ومايكل وولزر[11] Michael Walzer، وتشارلز تايلور[12] Charles Taylor، وروبرتو أونغر[13] Roberto Unger أو جوديث سكلار[14] Judith Skhlar؛ فهم يفكّرون حول النصوص نفسها، والمشكلات نفسها، مثله تماماً، وإن كان من وجهات نظر مختلفة. لكنَّه لا يسعى إلى أخذ على محمل الجد إلا من يتقاسمون معه أغلب آرائه، الذين يتفقون معه أنَّ الفلاسفة بالضرورة يجب أن يكذبوا. فليس لديه وقت يضيّعه مع التاريخانيين، والذين يفكرون مثل ما يقول راولس Rawls: «إنَّ ما يبرّر تصوُّراً للعدالة، ليس هو تماثله مع نظام سابق معطى سلفاً، إنَّما اتفاقه مع فهمنا العميق لأنفسنا ولتطلعاتنا ووعينا، بحكم تاريخنا المعطى وتقاليدنا المندرجة في حياتنا العموميَّة، فهو المذهب الأكثر عقلانيَّة بالنسبة إلينا».

بالنسبة إلى بلوم Bloom، الذي يستطيع أن يكتب هذا يكون قد تخلّى مسبقاً عن ترشحه «للجماعة الإنسانيَّة الحقيقيَّة» الوحيدة، وأظهر بأنَّه مجرَّد «مثقف» بدلاً من كونه «فيلسوفاً».

يصف بلوم Bloom ديوي Dewey، الذي اعتقد بأنَّ معاني مثل «الروح» و«الحقيقة الأبديَّة» تنتمي إلى طفولة الفلسفة ـ عندما لم نكن بعد منفصلين عن خشية واحترام الديني ـ، يصف ديوي إذن على أنَّه طفل كبير. فهو لا يهتم بالمفكّرين السياسيين الذين، خلافاً لـ «مكيافيلي» Machiavelli، يأخذون بجديَّة حزبهم، ولما سمَّاه إيزيا برلين[15] Isaiah Berlin «الحريَّة السلبيَّة» (تلك التي يترك فيها المرء هادئاً، مقارنة بـ «الحريَّة الإيجابيَّة» التي يكون فيها مساعداً في البحث عن الخير). يعتقد هؤلاء المفكرون، حسب عبارة

---

11 مايكل وولزر Michael Walzer (1935 -) فيلسوف ومنظّر اجتماعي أمريكي، اعتنى كثيراً بمواضيع السياسة والأخلاق والعدالة. اشتغل بعدَّة جامعات أمريكيَّة. من كتبه:

- The Revolution of the Saints: A Study in the Origins of Radical Politics (1965) - Obligations: Essays on Disobedience, War and Citizenship (1970) - Civil Society and American Democracy (1992) - Thick and Thin: Moral Argument at Home and Abroad (1994) - Pluralism, Justice and Equality, with David Miller (1995) - War, Politics, and Morality (2001)

12 تشارلز تايلورCharles Taylor (1931-) فيلسوف كندي، أستاذ الفلسفة والعلوم السياسيَّة بجامعة ماك غيل بمونتريال. تلتقي في فلسفته عدَّة اتجاهات منها التأويلي والفينومينولوجي والسوسيولوجي والتحليلي والأخلاقي. من أهمّ نصوصه مصادر الذات المترجم إلى العربيَّة Sources of the Self

13 روبرتو أونغرRoberto Unger فيلسوف برازيلي (-1947) أستاذ بكليَّة الحقوق بجامعة هارفارد. ينطلق في مشروعه لإعادة بناء العلوم الاجتماعيَّة من رؤى منهجيَّة جديدة. وقد لاقت وجهة نظره ردود فعل قويَّة، وكانت له نقاشات مع رورتي.

14 جوديث سكلار1992 -1928) Judith Skhlar) فيلسوفة أمريكيَّة ومنظّرة سياسيَّة. اشتغلت بجامعة هارفارد من أعمالها:

- After Utopia: The Decline of Political Faith (1957) - Legalism: Law, Morals, and Political Trials (1964) - Men and Citizens: A Study of Rousseau's Social Theory (1969).

15 إيزيا برلين Isaiah Berlin (1909- 1997) فيلسوف سياسي بريطاني ومؤرخ للأفكار الاجتماعيَّة والسياسيَّة للغرب. ترأس الأكاديميَّة البريطانيَّة من 1974 إلى 1978

ستراوس Strauss، أنَّ «ما هو ضروري لمؤسسة النظام الاجتماعي المناسب، ليس المهم تكوين الطابع بقدر ما هو في المؤسسات المناسبة». لكن، يعتقد ستراوس أنَّ هذه الفكرة الأخيرة ستقودنا آجلاً أو عاجلاً إلى الزعم أنَّ «النظام الوحيد الشرعي هو الديمقراطيَّة»، وإلى رعاية الفكرة الخاطئة القائلة إنَّ الديمقراطيَّة هي من الناحية الفكريَّة وليست فقط من الناحية الحصيفة، مبرَّرة.

لقد كانت نتيجة هذه الكيفيَّة في تنظيم الإدارات على المناقشة السقراطيَّة أن أصبح الستراوسيون نوعاً من الطائفة. مع أنَّ هذه الطائفة تضمُّ أعضاء من علماء معروفين وموثوقين حقاً. لقد اتجهت المجادلة بسرعة بين الستراوسيين وغير الستراوسيين إلى التعفن والارتباك في قضايا تتعلق بالتفسير الصحيح لـ«ستراوس» ذاته أو لنصوص (أفلاطون Plato، أرسطو Aristotle، لوك Locke، روسو Rosseau) الذين بنى حولهم ستراوس Strauss تأويله السامي والمعقد لانهيارنا منذ القدم إلى الحداثة.

في نهاية تقرير عن راولس، كان بلوم قد كتب أنَّ «الضعف الكبير» لكتاب راولس يكمن في «نقص التربية» الذي كشف عنه، وأنَّ «جوهر الكتاب» مكوَّن من «تأويلات مغلوطة» لأرسطو Aristotle، وهوبز Hobbes، ولوك Locke، وروسو Rosseau وكانط Kant. على العموم لا يسمح الستراوسيون بإمكانيَّة التأويلات المختلفة، وهي أيضاً مشروعة، لهؤلاء الكُتَّاب؛ لكنَّهم يميزون بين «تأويلاتهم الأصيلة» و«التأويلات المغلوطة» للآخرين. إنَّهم يشبهون، تحت هذا المظهر، الماركسيين والكاثوليك. إنَّ النبرة التي يتكلم بها عن أفلاطون هي نفسها التي يتكلم بها ألتوسير[16] Althusser بخصوص ماركس Marx، وهي النبرة ذاتها التي استعملها ماريتان[17] Maritain (ووليام بيكلي Wiliam Beckley الشاب) بشأن القدّيس توما الإكويني St Thomas Aquinas، وهي أيضاً النبرة نفسها التي كانت لعدد من الأعضاء، الذين أطلق عليهم بلوم Bloom في أفضل فصل في كتابه «اليسار النيتشوي» THE Nietzschean left، وكتبوا عن فوكو Foucault. فلم يكن ممكناً قط تصوُّر أحد من هؤلاء الكُتّاب يمكنه أن يخطئ بالأساس؛ بل إنَّ الأمر يتعلق فقط بجعل ما كتبه متماسكاً.

16 لويس ألتوسير Louis Althusser فيلسوف فرنسي، ولد بالجزائر (1918 - 1990)، اشتهر بكتابه قراءة رأس المال لكارل ماركس، وبتحليله هذا عُدَّ واحداً من مجدّدي النظريَّة الماركسيَّة، ضمن رؤية تلحق غالباً بالبنيويَّة.

17 جاك ماريتان Jacques Maritain (1882- 1973) فيلسوف فرنسي معاصر، وأحد الوجوه البارزة في تجديد الطوماويَّة. تُعرف نصوصه بإحاطتها بحقول مختلفة معرفيَّة وميتافيزيقيَّة وفنيَّة وأخلاقيَّة وسياسيَّة. من نصوصه التي نشرها بالاشتراك مع زوجه رايسا أومنسوف Raïssa Oumançoff:

La Philosophie bergsonienne (1914) - Primauté du spirituel (1927) - Pourquoi Rome a parlé (1927) - Religion et culture (1930) - Le thomisme et la civilisation(1932) - De la philosophie chrétienne (1933) - La personne humaine et la société (1939) - Le crépuscule de la civilisation (1939) - Saint Thomas and the problem of evil (1942) - Essays in Thomism (1942) - De Bergson à Thomas d'Aquin. Essais de Métaphysique et de Morale (1944) - Man and state (1951) -Reflections on America (1958) - The responsibility of the artist (1960)

ومع هذا، من وجهة نظر بلوم Bloom، فمن الغلط اقتراح، كما قمت أنا بذلك، وجود منتدى مفتوح وحر من خلاله يمكن للستراوسيين مناقشة معارضيهم سقراطياً. وفي الواقع الوضعية أسوأ ممَّا نعتقد عموماً: « يقول لنا بلوم Bloom نحن مثل رعاة جهلة، يعيشون على موقع حيث ازدهرت في القديم حضارات كبرى». إنَّ الاقتناع المنتشر بكثرة في أوروبا وفي آسيا، ومفاده أنَّ الجامعات الأمريكيَّة هي بشكل كبير حرَّة ومزدهرة، وبأنَّها مراكز مشرقة للمعرفة ومنتديات رائعة للنقاش السقراطي، كما لو أنَّ العالم لم يعرف لها مثيلاً قط، هذا الاقتناع في نظره جدّ خاطئ. بالعكس، يقول لنا العنوان الفرعي لكتاب بلوم Bloom: «لقد خان التعليم العالي الديمقراطيَّة وأفقر روح طلبة اليوم». وفي موضع آخر [يقول]: «تعكس أزمة التربية الليبراليَّة أزمة قمم المعرفة، عدم تماسك وعدم تجانس المبادئ الأولى التي من خلالها نفسّر العالم، إنَّها أزمة فكريَّة لحضارتنا».

إنَّ الجامعات الأمريكيَّة، خاصة منذ سنوات الستينيات الكارثيَّة، «قد تحللت». ففي ميدان الإنسانيات، «لا يوجد حتى مظهر لنظام، ولا فكرة جادة لما يمكن أن ينتمي إليها، لما تهدف إليه فروعها». في أمريكا، «اللغة الفلسفيَّة ما هي إلا رطانة». كيف نستغرب إذن أنَّ المربَّع الأخير للفلاسفة الحقيقيين يبقى فيما بينه، ويرفض أن يمتزج بالمثقفين المُرطنّين، بهؤلاء الناس الماهرين جداً في التلاعب بالتجريدات، لكن يعوزهم الصبر والنزاهة التي تتيح لهم إدراك عدم تماسك تاريخانيتهم؟ وكيف نستغرب وفي أعين المثقفين الباقي الصغير من الستراوسيين لا يبدو إلا كونه طائفة غير متسامحة ونرجسيَّة؟

التاريخانيون والستراوسيون

يثير كتاب بلوم Bloom ثلاث قضايا: أولاً: هل هو على صواب، ضدَّ الرأي العام، حول حالة التعليم العالي في أمريكا؟ ثانياً: هل كان أفلاطون محقاً، ضدَّ ديوي Dewey، للتفكير في وجود حقيقة دائمة، لا تاريخيَّة، تتعلق بطبيعة الإنسان والخير؟ ثالثاً: هل يمكن معالجة القضيَّة الأولى باستقلال عن الثانية؟ أم يتوجب علينا معرفة ما إذا كان أفلاطون على حق قبل القرار إن كانت الجامعات الأمريكيَّة في حالة سيئة؟

يعتقد بلوم Bloom أنَّ الأمر كذلك، ويرى أنَّه ينبغي أن نبدأ من المبادئ الأولى. أمَّا فيما يخصنا، نحن التاريخانيين وأتباع ديوي Dewey، فإنَّنا نعتقد أنَّ «المبادئ الأولى» هي مختصرات، بدلاً من كونها تبريرات، لجملة من الاعتقادات تتعلق بالطابع المرغوب لبعض الخيارات الملموسة؛ ومصدر هذه الاعتقادات ليس هو «العقل» أو «الطبيعة»، إنَّما بالأحرى تفوُّق بعض أنماط الحياة أو المؤسسات في الماضي. كذلك نفكر أنَّ الطريقة الملائمة للنظريَّة السياسيَّة هي تلك التي سمَّاها راولس «البحث عن التوازن المتبصّر». إنَّنا نرقع، من دون أن نتوفر مسبقاً على معيار واضح، بمقارنة حكمنا الحدسي لتطور حديث كهذا (مؤسسة

أو نمط حياة) مع آخر قديم «مبدأ أول» الذي يبدو أنَّه مناقض لحدسنا، وبهذا نأمل في العثور على وسيلة لموازنة المطالب في الحضور.

إنَّ التأكيد التاريخاني لترقيع كهذا من دون معيار يجب أن يستبدل التمسك الأفلاطوني بمعايير ثابتة يفترض وجود عدد من المؤسسات وأنماط الحياة حيث يكون أفلاطون Plato (وأيضاً من جهة أخرى لوك Locke ومل Mill) على جهل تام بها. على خلاف ذلك، فمن الأساسي لموقف بلوم الحفاظ على لغة أفلاطون Plato وأرسطو Aristotle وهي، فيما يتعلق بالفلسفة السياسيَّة، مناسبة تماماً لمعالجة كلّ ما حدث منذ مرحلتهما، وأنَّه ليست هناك إمكانيَّة أساسيَّة أمكنها الإفلات من أفلاطون. وإذا كان التاريخ بالفعل ينتج دوماً مواد جديدة، إذن فالاختبار الأفلاطوني للتماسك لا يمكنه أن يقدم معياراً لا زمانياً للحكم على الأشياء الأخلاقيَّة أو السياسيَّة. إنَّ التاريخانيين يعتقدون أنَّنا لا نجد أبداً من سند أكثر صلابة من تجربتنا المتراكمة بمزايا ومساوئ الخيارات الملموسة المتنوعة (كما يحكم عليها حِسُّنا المشترك، وهو كلُّ شيء عدا أنَّه ثابت، وما هو سوى الحكم على الأكثر حداثة، للأفضل إعلاماً والأكثر حريَّة لأطفال المرحلة).

أن تكون «فيلسوفاً» ستراوسياً أو «مثقفاً» تاريخانياً فالأمر مرتبط بهذا: هل نحكم على هذا الغياب لمعيار لا متغير ولا زمني مقبول؟ بالنسبة إلى ستراوس Strauss، فالأمر غير مقبول. فهو يرى أنَّه «إذا لم يكن معيار عالٍ متوفراً لمثال مجتمعنا، فنحن عاجزون تماماً عن النظر إلى هذا المثال بمسافة نقديَة». يرى أتباع ديوي Dewey أنَّ ما يطرح هنا هو غير منطقي (لا لزوم له). ويعتقدون أنَّه بالإمكان العثور على هذه المسافة النقديَّة فقط عند المقارنة بتمعن المزايا والمساوئ لأنماط حياتنا ومؤسساتنا مع ممكنات أخرى (تاريخيَّة أو أنثربولوجيَّة) أو متخيلة (أدبيَّة)، دون الزعم أنَّ هذه أو تلك من الممكنات «أعلى» أو «أقرب إلى الطبيعة» (...) بالنسبة إلى ستراوس Strauss وبلوم Bloom كلُّ هذا غير منسجم مع الصورة الأفلاطونيَّة للفيلسوف الباحث عمَّا هو حسن بالطبيعة، بدلاً من فرز ببساطة اتفاقات مختلفة.

إنَّ التباين بين موقفي ديوي Dewey وبلوم Bloom يتعلق بمقطع، وفيه يحيل بلوم إلى أسطورة الكهف الأفلاطونيَّة:

«فثقافة ما هي كهف. إنَّه لا يقترح [أي أفلاطون] أنَّ جولة بين الثقافات الأخرى يمكنها أن تكون شفاء من قيود الكهف. ينبغي أن تكون الطبيعة هي المعيار الذي به نحكم على حياتنا وحياة الآخرين، ولهذا السبب فإنَّ الفلسفة هي العلم الإنساني الأهم، وليس التاريخ أو الأنثربولوجيا».

يحثه ديوي Dewey على التجوُّل بين الثقافات الأخرى. ويعتقد أنَّ الربح (عبر التاريخ والأنثربولوجيا) سيكون هو نفسه الذي سنجنيه من الفنون، اتساع خيالنا الأخلاقي. لقد كان يضع إيمانه في الفنون بدلاً من

الفلسفة، لأنَّه لم يكن يؤمن بوجود شيء مثل الطبيعة يصلح «معياراً». إنَّ «فكرة طبيعة بشريَّة»، مثل «البحث عن اليقين» تمثل محاولة، يمليها الجبن، لاختزال وجود يتكون بذاته في شيء محدَّد مسبقاً وغير متغير.

ينبّه ديويDewey إلى أنَّه في أعين من هم غير ناضجين كفاية في التوق إلى اليقين، «فالقول صراحة إنَّ الفلسفة لا يمكن أن تتقدَّم إلا بفرضيات، وإنَّ هذه الفرضيات ليس لها قيمة إلا بالقدر الذي تجعل عقول الناس أكثر حساسيَّة للحياة التي تحيط بهم، تبدو هذه كسلب للفلسفة ذاتها».

وهذه هي قناعة الستراوسيين. لقد نظَّم ستراوس Strauss تاريخه للفكر السياسي مثل سرّ للانحطاط: كيف ضيَّعنا الاتصال بفكرة «التفلسف» كنشاط إنساني متميز، وكنشاط ينتج «السعادة الحقيقيَّة الوحيدة»، وكنشاط وحيد حسب بلوم من يجعل ممكناً «الجماعة البشرية الحقيقيَّة»؟ لقد رأى ديوي Dewey في هذا التغير علامة على النضج بدلاً من كونها انحطاطاً. وبرأيه، فإنَّ نظريَّة المعرفة التأمليَّة المقترحة من طرف أفلاطون Plato، وبدعواها التي مفادها أنَّ «العلماء الحقيقيين» وحدهم يستطيعون تشكيل جماعة أصيلة، كانت بمثابة فرضيات بدائيَّة، وحيث التمسك بها، حتى وإن كانت في صورة مخفَّفة، سيجعلنا غير واعين بممكنات الحياة الديمقراطيَّة.

إنَّ ما يهمنا نحن «المثقفين»، في مقابل «الفلاسفة»، هو إبداع وانفتاح الخطاب، وليس تجاوره مع شيء يقع وراءه. إنَّ الأفلاطونيين مثل أتباع ديوي Dewey يجعلون من سقراط Socrates بطلهم. بالنسبة إلى أفلاطون Plato، فإنَّ حياة سقراط Socrates لا معنى لها إلا بوجود شيء مثل فكرة الخير في نهاية الطريق الجدلي. بالنسبة إلى ديوي Dewey، فإنَّ حياة سقراط Socrates ترمز إلى حياة انفتاح وفضول. لقد كانت حياة تجريبيَّة؛ نوع الحياة الذي تشجعه التجربة الديمقراطيَّة الأمريكيَّة، والذي يشجعه هو بدوره.

إنَّ فكرة ديوي Dewey الداعية إلى عدم اكتراث المجتمع إلا بحريَّة الجامعات، وليس بما يُعلَّم فيها، لها ما يوازيها في تأكيد راولس Rawls من أنَّ العدالة الاجتماعيَّة هي مسألة إجراء بدلاً من كونها ماهية، وأنَّه يجب أن تكون مستقلة عن «تصورات الخير» التي تتعارض. عندما نتداول في الاختيار بين المؤسسات الاجتماعيَّة، حول السؤال: «ما الخير بالنسبة إلى الإنسان؟»، يجب أن نستبدل السؤال الراولسي: «هل هذه المؤسسة منصفة [fair] بالنسبة إلى كلّ واحد: لا تفضّل أيَّ عرق، أيَّ جنس، أيَّ مستوى للذَّكاء (علامات نسبة الذكاء intelligence quotient) ولا دخل، ولا أيّ تصوُّر للحياة؟».

إنَّ التصوُّر الراولسي للعدالة كإنصاف fairness هو، بالنسبة إلى بلوم Bloom، برهان بالخلف reductio ad absurdum من خط التفكير الذي حولنا تدريجياً تحت تأثير هوبز Hobbes، ولوك Locke وملMill، عن السؤال الإغريقي: «ما نوع الإنسان الذي يتوجَّب على الدولة أن تنتجه»؟ ليجعلنا نتساءل

فقط: «كيف يمكننا تحقيق أقصى قدر من الحريَّة والمساواة؟» يريد بلوم Bloom أن يعرف إذا ما كانت هذه النتيجة الفلسفيَّة عبثيَّة، فهل ينبغي أن تحسم من طرف «المبادئ الأولى»؟ أمَّا نحن أتباع ديوي Dewey فنريد أن تحسم بواسطة اختبار استحقاقات الاقتراحات للإصلاحات الملموسة التي ستجلبها للمؤسسات الأمريكيَّة.

منهج الكتب الكبرى

هكذا يتوجب علينا أن نرجع إلى الملموس: فهل كان بلوم Bloom صائباً في وصفه للتعليم العالي بالولايات المتحدة؟ مع الأسف، فإنَّ استحضاره لما يجب أن يكون لا معقوليَّة له إلا إذا تقاسمنا مسبقاً كثيراً من قناعات أفلاطون. (إنَّ عنواناً فرعياً أكثر تدقيقاً لكتابه يمكن أن يكون: «كيف خانت الديمقراطيَّة الفلسفة، وجعلت من الصعب على الطلبة أخذ أفلاطون على محمل الجد؟»).

يعطي بلوم Bloom الانطباع بأنَّ كلامه يمكن أن يقارن بما قاله إ. د. هيرش[18] E. D. Hirsch في محو الأميَّة الثقافيَّة Cultural literacy. كثيراً ما تمَّت مناقشة هذين الكتابين سوياً، كما لو أنَّ ما قام به بلوم بالنسبة إلى الجامعات هو ما قام به هيرش Hirsch في التعليم الابتدائي والثانوي، كما لو أنَّ بلوم قدَّم قاعدة فلسفيَّة للانتقادات التي وجهها هيرش Hirsch للممارسات التربويَّة الحاليَّة. لكن لا يمكننا أبداً تخيل كتابين مختلفين. فـ هيرش Hirsch يعمل ضمن إطار فهم ديوويّ [نسبة إلى ديوي Dewey] للديمقراطيَّة، وللتذكير (على سبيل المثال فقط) بأنَّ الأفكار البيداغوجيَّة لديوي Dewey والمتعلقة بـ«التقنيات أو المهارات» [skills] في مقابل «المحتوى» كان لها آثار مدمرة، وبأنَّه يتوجب الشروع في إصلاحات خاصة ونوعية جداً إذا ما أردنا الحصول على جماعة ناخبة قادرة على فهم رهانات الساعة. إنَّه يريد أن يجعل من الطلبة مواطني الديمقراطيَّة. إنَّه يريد أن يعترفوا بالمزيد من الإشارات، بحيث يستطيعون معها الاشتراك في محادثات أكثر تنوعاً، أن يقرؤوا أكثر، وأن يكون لهم وعي أفضل بما يهدف إليه الرجال في السلطة، سيعطون أصواتهم وعلى أحسن اطلاع. وفقاً لهذا سيشيد ديوي Dewey بـ هيرش Hirsch.

يبدو أنَّ دفاع بلوم Bloom عن «الطريقة الجيدة القديمة للكتب الكبيرة»، نوع الجهد نفسه المطبق هذه المرَّة في الجامعات. لكن كثيراً من أولئك، من مثلي أنا، سيكونون لصالح الإصلاحات المقترحة من طرف هيرش Hirsch للتعليم قبل الجامعي ودراسة للكتب الكبيرة أثناء السنتين الأوليين من الجامعة، وبتراجع أمام الفكرة التي كانت لـ بلوم Bloom عن «منهج الكتب الكبيرة». لأنَّ بلوم لا يكتفي فقط بأن يقرأ الطلبة «بعض

18 أ. د. هيرش E. D. Hirsch (1928-) مربٍّ وناقد أدبي أكاديمي أمريكي، أستاذ متميز للتربية والعلوم الإنسانيَّة بجامعة فرجينيا (الجامعة التي درس بها مدة من الزمن رورتي). من مؤلفاته:

Innocence and Experience: An Introduction to Blake (1964) - Validity in Interpretation (1967) - The Aims of Interpretation (1976) - The Philosophy of Composition (1977) - Cultural Literacy: What Every American Needs to Know (1987) - The Dictionary of Cultural Literacy (1988) - The Schools We Need: And Why We Don't Have Them (1996)

النصوص الكلاسيكيَّة المعروفة عموماً»، إنَّه يريد أن تقرأ هذه النصوص حسب منهج نوعي، المنهج الستروا‌سي. فالأمر يتعلق بـ «ترك النصوص تملي الأسئلة وكيفيَّة قراءتها، وليس إخضاعها إلى مقولات نبتدعها، ليس من أجل معالجتها كإنتاجات تاريخيَّة، إنَّما بغية محاولة قراءتها كما أرادها مؤلفوها أن تُقرأ».

هذا ما يبدو على أنَّه بالأحرى غير ضار، لكن لنفكر لحظة. في العادة عندما نقرأ كتاباً يكون ذلك مصحوباً بأسئلة في الذهن، وليس بأسئلة يمليها الكتاب، إنَّما أسئلة نكون قد طرحناها من قبل، مهما تكن مبهمة. إنَّني لا أرى كيف يمكننا تجنُّب إخضاع الكتب إلى «مقولات نخترعها»، ذلك أنّي لا أرى كيف يمكن أن نجعل من ذهننا صفحة بيضاء. بالتأكيد يتوجب علينا الاعتراف بفضل الكاتب، إلغاء أو تعليق شكوكنا أو إنكارنا لوقت طويل حتى نتكيَّف مع طريقته في الكتابة والتفكير، ومحاولة وضع أنفسنا إلى حدٍّ ما مكانه، منحه كلَّ الفرص لإقناعنا. غير أنّي أشك أنَّ هذا التعليق الأولي للحكم الذي يمليه التعاطف سيكفي بلوم Bloom. ذلك أنَّ هذه خاصيَّة عند الستراوسيين في التفكير بأنَّ طالباً ارتمى في أفلاطون Plato ويبرز بتفضيل لـ مل Mill، وديوي Dewey وراولس Rawls يكون قد قرأ بشكل سيئ أفلاطون Plato، وأنَّ روحه قد أفقرت مسبقاً إلى حد هذه النقطة (من خلال التاريخانيَّة الماكرة التي تطبع الحياة الفكريَّة المعاصرة)، وأنَّه لم يكن قادراً على القراءة بشكل ملائم. وإذا كان الطلبة الذين ينتسبون إلى الأفلاطونيَّة يتناثرون في المراكز، عندئذ، يفكر الستراوسيون بأنَّ اللائمة يجب أن تقع أكثر على الجامعات.

لكن حينما نشرع نحن الأساتذة في إثارة «أزمة فكريَّة من الدرجة الأولى»، أو «التسامح القمعي»، أو «خيانة المثقفين» (بمعنى أساتذة آخرين) بغية تفسير عجزنا عن إقناع المزيد من الطلبة، ما الذي يجب فعله؟ حسب روح ديويDewey، فإنَّ الشيء الوحيد الذي يمكن أن يتمَّ هو التحقق من حالة الحريَّة الجامعيَّة. هل يستطيع الطلبة قراءة كلّ ما يرغبون بقراءته من دون عقاب (مهما تكن هذه العقوبة سريَّة ولطيفة)؟ وهل يستطيع الأساتذة قول كلّ ما يودون قوله ومع ذلك يرقَّون؟ وهل سنتمكن من توظيف ممثلين عن كلّ المدارس المتخيَّلة ـ تفكيكيين deconstructionists، ماركسيين marxists، هابرماسيين habermassians، كاثوليك catholics، ستراوسيين straussians؟ وهل الحكومة والأمناء والإدارة الجامعيَّة يضمنون التمويل، من دون أن تطرح أيّ أسئلة فيمَ تمَّ استخدامه؟ هل تبقى المكتبة مفتوحة إلى وقت متأخر من الليل؟ وهل المنح عديدة وسخيَّة بما يكفي ليعمل الطلبة، عوض أن يتولوا أخذ طلبيات ماك دونالد Mc Donald؟ وهل تحوز الحقيقة كلَّ الفرص كي تنجح في حوار حر ومفتوح؟ مقارنة مع أسئلة كهذه، فإنَّ الجامعات الأمريكيَّة هي في أفضل وضعيَّة من أيَّة مؤسسة علميَّة في التاريخ. لكن بأعين بلوم الأفلاطونيَّة، فإنَّ الأسئلة التي طرحتها ليست هي الوحيدة، ولا هي الأكثر أهميَّة. يعتقد أنَّه يتوجب علينا ألا نسأل فقط عن الإجراءات المؤسساتيَّة، إنّما عن جوهر ما يُدرَّس.

إنَّ الحصول على إجماع حول وظيفة ومهمة أقسام الإنسانيات يُعدُّ تقريباً آخر شيء يمكن لأتباع ديوي Dewey أن يطمحوا إليه. فعندما يتحدث بلوم Bloom عن مشكلة الإنسانيات، وانطلاقاً من مشكلة وحدة المعرفة، لا نرى لماذا يجب تصوُّر المعرفة بوصفها وحدة (بدلاً من كونها علبة أدوات مثلاً). والجامعة كسوق براغيث [سوق للسلع القديمة]، وهذا ما يناسبنا تماماً (لكن، بخصوص الأسباب التي يقدمها هيرش Hirsch، فهذا لا يتماشى مع التعليم الابتدائي والثانوي). وحالما يتمُّ تصحيح ثغرات مدارسنا الثانويَّة بواسطة سنتين من الكتب الكبيرة، ينبغي على الطلبة أن يكونوا أحراراً في اختيار السوق ضمن البازار الأوسع والأكثر ضجيجاً.

في الواقع لا يقدّم بلوم شيئاً ذا بال، بخصوص المقترحات العمليَّة. كنا نودُّ أن نعرف كيف يفكر بشأن قدرتنا على إعادة تنظيم الجامعات حتى تتوقف عن إفقار أرواح طلبتنا مع الحفاظ على ما نعتبره حريَّة جامعيَّة. (على سبيل المثال، هل بمستطاعه أن يقترح علينا وسيلة تنزلنا، نحن التاريخانيين، ممَّا سمَّاه قمم المعرفة من دون أن يعطي لأحد من قبيل سكرتير التربية سُلطة تعيين الكراسي)؟ قد توجد هناك أداة، لكنَّها ليست بديهيَّة. أم هل يكون بمقدورنا أن نسمح في التفريط بشيء من حريتنا خدمة لأهداف أخرى مع فعاليَّة أكثر؟ لكن هذا أيضا ليس بديهياً. إلا إذا كتب بلوم تتمَّة ونزل من المبادئ الأولى كي يعتني بهذه الأشياء (كما فعل هيرش Hirsch)، سيكون من الصعب إصدار حكم حول خاتمته النهائيَّة:

«إنَّها اللحظة الأمريكيَّة في تاريخ العالم، تلك التي سيحكم بها علينا. وبالمثل في السياسة فإنَّ مسؤوليَّة مصير الحريَّة تقع على نظامنا، والشيء نفسه حول مصير الفلسفة الذي يتوقف على جامعاتنا، وكلا المصيرين مرتبطان ببعضهما بعضاً، كما لم يسبق أن حدث من قبل».

إنَّ هذا المقترح بوجود علاقة وطيدة بين مصير الفلسفة ومصير الحريَّة يرجع إلى الزعم بأنَّ مصير الفلسفة ومصير الحريَّة مرتبطان بإخفاء الإيمان بالمعاني الإغريقيَّة مجتمعة، تبرر التأكيد على أنَّ جماعة الفلاسفة هي الجماعة الوحيدة الحقيقيَّة، باختصار، ما لم تكن هناك عودة إلى أفلاطون فليست لدينا أيَّة فرص لتجنب السقوط مجدداً في الاستبداد. وحدها هذه الفلسفة الجيدة القديمة بإمكانها أن تنقذنا اليوم.

الفلسفة والحريَّة

إنَّ التأكيد على أنَّ الاتفاق مع أفلاطون Plato هو أساس مقاومة الطغيان يرجع إلى فكرة ستراوس هذه؛ القاضية بأنَّه بمقدورنا أن نعزو النزعة الهتلريَّة إلى نظريات خاطئة عن الإنسان، الطبيعة والإنسان، إلى

النزعة النسبيَّة وإلى التاريخانيَّة. تقاسم ستراوس Strauss مع كثير من المهاجرين الآخرين ـ مع أدورنو[19] Adorno مثلاً، نظيره على اليسار ـ فكرة أنَّ نمو الفاشيَّة يفسّر في جزء منه من خلال الحركة الفكريَّة في أوروبا. اعتبر بلوم أنَّ هذه الفكرة مكتسبة لما نسب بتهكم إلى أتباع فرويد Freud وفيبر Weber الأمريكيين فكرة أنَّ «ما اختل في فيمار، فقط أنَّ الأشرار ربحوا».

من وجهة نظر ديويَّة، فهذا هو وحده ما ضلع في فايمار. والحقيقة أنَّه، كما يقول بلوم Bloom أنَّ «أخذ الفكر الألماني دورة مناهضة للعقلانيَّة ومناهضة لليبراليَّة مع نيتشه Nietzsche، وبشكل أكبر مع هايدغر Heidegger»، لم يسهم ذلك قط في تعديل الكفَّة لصالح الأشرار، تماماً ليس أكثر من شعبيَّة براغماتيَّة ديوي Dewey وسط المثقفين سنوات الثلاثينات لم تساعد على تفسير لماذا لم تكن فاشيَّة هنا. إنَّ الاختلافات بين المثقفين ـ إذا كانت الحقيقة لا زمنيَّة، وإذا ما كان «العقل» يشير إلى محكمة لا تاريخيَّة أو إلى إجماع هابرماسي حر، إذا كانت «الحقوق الثابتة» لإعلان الاستقلال لها أساس فوق تاريخي أو هي بالأحرى اكتشافات مدهشة حديثة (مثل تعليم النساء والترانزيستور) ـ فهذه الاختلافات ليست ببساطة مهمَّة عندما يتعلق الأمر بنتيجة الانتخابات، أو بالمقاومة التي تواجهها ضربات القوة الفاشيَّة. بالنسبة إلى أتباع ديوي Dewey، فإنَّ الأسئلة النظريَّة: هل أجاب سقراط Socrate تراسيماخوس Thrasymachus؟ و«هل بمقدورنا أن نجيب على هتلر Hitler»؟ تستبدل بأسئلة أخرى عمليَّة: «كيف يمكننا ترتيب الأشياء بحيث لا يتمكن أناس مثل تراسيماخوس Thrasymachus وهتلر Hitler الوصول إلى السلطة»؟

إنَّ الخطابة العلنيَّة لأمريكا المعاصرة هي خليط مرتبك من الأفكار الدينيَّة، الأفلاطونيَّة والديويَّة. وإنَّ عبارات المديح والتوبيخ تستعمل باستمرار بدلالات مختلفة التي تفترض معاني مختلفة «للعقل»، و«للحقيقة» و«للحريَّة». هذه الخطابة المزيج هي بالضبط ما يمكن أن ننتظره من مجتمع تعدُّدي، لكنَّها تحث الزمر الفكريَّة المتباينة على ضرب الطبل وجلب الانتباه بالتحذير من أن الخصوم هم بصدد خيانة الجمهوريَّة.

يمكنكم على الدوام قرع ناقوس الخطر باتهام «النزعة النسبيَّة relativism» أو «النزعة اللاعقلانيَّة irrationalism »، زدْ على ذلك مع اتهام أيضاً «النزعة الدوغمائيَّة dogmatism» أو «النزعة السكولائيَّة scolastic». سيكون من السهل، لكن بدناءة ولؤم، الرد على بلوم بالضرب على طبلي ونشر تحذيراتي. إنَّ

19 تيودور أدورنو Theodor Adorno (1903 -1969) فيلسوف وسوسيولوجي وموسيقي ألماني، من مؤسّسي مدرسة فرانكفورت (النظريَّة النقديَّة)، أدرج مع زميله ماكس هوركهايمر Max Horkheimer مصطلح الصناعة الثقافيَّة الذي يستوجب تداخل الفروع وتعاونها. من بين مؤلفاته:

- La Dialectique de la Raison (1944) - Philosophie de la nouvelle musique (1948) - Minima Moralia. Réflexions sur la vie mutilée (tr. f. 1980) - Contribution à une métacritique de la théorie de la connaissance, Etudes sur Husserl et les antinomies de la phénoménologie (1956) - Notes sur la littérature (1958, 1961, 1965, 1974), trad. Sibylle Muller, Flammarion, 2004 -: une physionomie musicale (1960) - Introduction à la sociologie de la musique (1962) -Trois études sur Hegel (1963) - Modèles critiques I (1963) - Dialectique négative (1966).

إجابة في ذهن ديوي Dewey ستثير بيسر نزعة التعاظم الفكريَّة، عدم القدرة على منح الثقة لغرائز الشعب المقدَّسة وبالطبع، «النخبويَّة elitism».

لكن سيكون من الأفضل أن يتساءل كلا الفريقين بهدوء إذا ما كان قلق بلدنا يتعلق حقاً بـ «ضجر روحي عميق» الذي ذكرناه سابقاً. ألا يمكن أن يكون سبب انشغالنا أو قلقنا لأنّنا اصطدمنا ببعض الأحداث البشعة، العنيدة والماديَّة جداً؟ فعلى سبيل المثال: هذا لم يكن هو القرن الأمريكي، وقد تكون «اللحظة الأمريكيَّة في تاريخ العالم» مرَّت، ومن الممكن أنَّ الديمقراطيَّة لم تنتشر في العالم، ونحن لا نعرف كيف نخفّف من حدَّة البؤس واليأس اللذين يعيش فيهما نصف البشر (بما في ذلك خمس مواطنينا).

إنَّ أتباع ديوي Dewey يرتابون بأنَّنا نحن الأمريكيين لا نعاني من أيّ شيء أكثر عمقاً أو أكثر روحانيَّة من أنَّ أعيننا أكبر من بطوننا بتحديد مهمتنا في إنقاذ العالم من الاستبداد والحاجة. ألا يمكن أن تكون مشكلتنا في الفراغ الداخلي، بل في مجرد إخفاق عملي، غرق بعض آمالنا؟ هذه الآمال، مثل تلك التي ساقت شراع أفلاطون Plato نحو سراقوسة Syracuse، ويمكن أن تبدو ساذجة استعادياً (بالنظر إلى الماضي)، لكنَّها لم تكن بليدة ولا مخزية.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017